عظة الميلاد

صباح السبت 25 كانون الأول 2004 ترأس سيادة متروبوليت بيـروت وتوابعهـا المطـران الياس عوده قداس الميلاد في كنيسة القديس نيقولاوس في الأشرفية بحضور حشد من المؤمنين، وقـد ألقى بعد قراءة الإنجيل المقدس العظة التالية:

"المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة".

يا أحبة، كما سمعتم في النص الإنجيلي، إن المولود الذي نعيد له اليوم هو يسوع المسيح الآتي إلى العالم ليخلّص الإنسان. اؤلئك الذين يتأملون السماء ويسيرون بهدي النجوم علموا بولادته. النـور الصغير، النجم في السماء، دلّهم على النور الأعظم الذي يشرق للمستقيمين. قصدوه. وعندما وصـلوا إلى بيت لحم، الأرض التي هداهم إليها النجم، سمع الملك هيرودس بـولادة الطفـل الإلـه، الملـك، فاضطرب وجميع أورشليم لأنه لم يرد الإله قربه. اضطرب الملك لأن الحق ولد وأُظهر للناس بكليته.

يقول يوحنا الحبيب في بدء إنجيله: "والكلمة صار جسدا وحلّ بيننا ورأينا مجـده مجـدا كمـا لوحيد من الآب مملوءا نعمةً وحقًا" (1: 14). وكنا نرنّم: "لقد افتَقَدنا الرب من العلى، فنحن الجالـسين في الظلمة والظلال، قد وجدنا الحق". ويسوع نفسه قال لتلاميذه عندما كانوا يتساءلون عـن حيـاتهم ومسيرتهم بعدما عرفوه: "أنا هو الطريق والحق والحياة" (يوحنا 14: 6).

اضطرب هيرودس الملك لأنه لم يكن يريد معرفة الحق. وعندما ظهر الحقُ أمامه خـاف لأن الحق سيجعله في حال مرفوضة. يضطرب من لا ينتظر السماوي ولا يتمتع بالذوق الإلهي ولا يبغـي الدخول في أبعاد المعرفة الحقة والنور الإلهي.

الرب تجسد، صار إنسانًا وحلّ بيننا، ليعيد الإنسان إلى سابق بهاء صورته. تجسد الرب يسوع ليؤكد للإنسان قيمته وكرامته وليعيده إلى سابق مجده. أن يتحد اللهُ بالإنسان أمر لا يـساويه أي أمـر آخر. والكنيسة، التي هي جسد المسيح وامتداده في الزمن، مؤتَمنَة على خلاص الإنسان وكرامته. هي تحفظ كرامةَ الإنسان وقيمتَه وتحيطه بكل عناية ومحبة وصلاة، وتدافع عنه ضد كل من أو ما يـؤذي جسده أو نفسه أو حياته. الكنيسة هي المدافع الأول عن الإنسان، وكما هي حريصةٌ عليه، هي حريصة أيضا على سلامة المحيط الأصغر الذي يعيش فيه، أي العائلة، لأن العائلة هي الرحم الاجتماعي الحق، هي البطن الاجتماعي الأساس الذي يرفد المجتمع بالعناصر الطيبة الصالحة. وهي حريصة كذلك على المحيط الأرحب والأوسع الذي يعيش فيه الإنسان، أي الوطن. وهذان المحيطان مدعوان أن يكون كلٌ منهما كيانًا متكاملاً، منسجما. وإذا أُسيء إلى العائلة أو إلى الوطن، تقف الكنيسة حاميةً عـن كرامـة العائلة الصغيرة وعن كرامة العائلة الكبيرة، لأن أي خطر على هاتين العائلتين يـشكّل خطـرا علـى الإنسان، والكنيسة هي المدافع الأول والوحيد عن الإنسان. من هذا المنظار تحافظ الكنيسة على طهارة

الانتماء إلى العائلة وطهارة الانتماء إلى الوطن والأمانة له، وتدعو إلى عدم تشويش العقل بمفاهيم وأيديولوجيات كلها زائلة. أين الشيوعية والماركسية والأممية وغيرها؟ الإنسان يعرف أخاه وجاره ويعرف وطنه. ومن يطلع علينا بنظريات ويكبر الأمور كمن يكبر الحجر فلا يضرب. أنا أؤمن أني خرجت من بطن أمي ومن بطن عائلتي وأعيش في بطن وطني. لذلك ترجو الكنيسة من السلطة السياسية التي ترعى شؤون المجتمع المدني الوطني أن تكون وفية لرسالتها، كما هو مطلوب من الكنيسة وأبنائها إكرام السلطة السياسية واحترامها. جاء في رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية: "لتخضع كل نفسٍ للسلاطين الفائقة لأنه ليس سلطان إلاّ من الله، حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة. فإن الحكام ليسوا خوفًا للأعمال الصالحة بل للشريرة. أفتريد أن لا تخاف السلطان؟ إفعل الصلاح فيكون لك مدح منه لأنه خادم الله للصلاح" (13: 1-4). الحاكم خادم الله للصلاح، وإن لم يكن كذلك فالرب يؤدبه أيما تأديب.

مطلوب من الكنيسة وشعبها أن تكرم الحاكم وتحترمه لأن سلطته مرتبة من الله وهي عطية منه. ولكن إن خالفتْ هذه السلطة رسالتها فالكنيسة تعلن كما أعلن الرسل: "ينبغي أن يطاع الله أكثر من الناس" (أع5: 29).

يقول ثيوناس أسقف الإسكندرية (توفي 300 ب.م.) «اعتبروا كل أمرٍ يصدر من الملك ولا يسيء إلى الله كأنه يصدر من الله نفسه وأطيعوه بمحبة وخشية بكل فرح». وأما معلم الخطابة الروماني لاكتنتيوس (250-325 ب.م.) فينبه المؤمنين بقوله «عندما يأمرنا الناس أن نتصرف بخلاف ما يطلبه الله منا، وبخلاف ما يفرضه العدل علينا يجب ألاّ نأبه لأي تهديد أو عقاب يأتي علينا لأننا نفضل الله على أوامر الإنسان».

هيرودس اضطرب، وكل سلطة فاسدة تضطرب أمام الحق وتهذر. أن كانت تستلهم ما ليس بحق أو هو من وحي الظلم والقمع والاستبداد والمصلحة الخاصة، وإن تحالفت مع قوى الشر وتمردت على الله، فصوت الكنيسة النبوي يعلن إدانتها وسقوطها.

الكنيسة لا تريد أن تحلّ محلّ السلطة، وإن كانت هذه غايتها لأصبحت أرضية، تبتعد عما هو روحي وسماوي (وهي نازلةٌ من فوق لتقدس الأرض) وتبتغي حينئذ سلطانًا أرضيا عوض أن ترتفع إلى مصدرها وترفع معها الآخرين. ليس على الكنيسة أن تكون قيصرا أو ملكًا وليس على الدولة أن تقوم مقام الله أو تتصرف وكأنها الإله. أما إن كانت السلطةُ السياسيةُ خادمةً للحق والصلاح، مديرةً لشؤون الناس لما فيه خيرهم ولا تستغل ما لها من سلطان لاستغلالهم، فطاعتُها واجبةٌ في ما هو من أمور الدنيا ترعاها، لأنها خادمة الله للصلاح كما يقول بولس الرسول. ومطلوب أن تقام طلباتٌ وصلواتٌ وابتهالاتٌ وتشكراتٌ لجميع "الذين هم في منصب لكي نقضي حياة مطمئنة هادئة في كل تقوى ووقار، لأن هذا حسن ومقبولٌ لدى مخلّصنا الله" (1تيمو 2: 1-3).

الرسول بطرس يعتبر الولاة والملوك والسلاطين والمسؤولين مرسلين من الله "للانتقام من فاعلي الشر وللمدح لفاعلي الخير، لأن هكذا هي مشيئة الله أن تفعلوا الخير ... خافوا الله، أكرموا

الملك" (1بط2: 14-15 و17). لكن أشر الويلات أن يكون الحاكم فاسدا عوض أن ينتقم مـن فـاعلي الشر.

السلطة السياسية التي يتكلّم عنها الرسل هي سلطة تستلهم شريعة الله وتميل أذنها إلى كلامـه لتكون خادمةً للمشيئة الإلهية، فتدين الشعب بالعدل والمساكين والفقراء بالحق، وتخلّص البائس وتسحقُ الظالم وتؤسس للسلام. أما إذا كانت هذه السلطة في أيدي من هم ليسوا في تعب الناس ومـصائبهم – أي لهم آذان ولا تسمع، ولهم عيون ولا تبصر- أن كانت في أيدي من هم فـي هـم الحفـاظ علـى مناصبهم ومصالحهم، يكون الشعب في الألم والحيرة والفقر والضياع والهجرة واللامبالاة والـصراخ الدائم من أجل الحياة.

لذا نسأل الله أن لا يضطرب حكامنا إذا وقفوا أمامه، ونكون عندها في فرح وسرور عميقـين لأنهم أنقياء الجيوب والقلوب والعقول والأيدي. ولهذا السبب سألنا الرسولان بطرس وبولس والقديسون أن نرفع الصلاة في كل قداس من أجل حكامنا ونسأل الله أن يؤازرهم في كل عمل صالح.

وفي هذا العيد المبارك، ذكرى ولادة الإله الإنسان، ولادة الحق، نسأل الله أن يبـارك حكامنـا لأننا نفرح بهم إن كانوا من أهل الحق، وأن يجعل آذانهم سامعةً كلمته، وضمائرهم تحيـا بحـضوره، لكي ينعم الشعب الموضوع في رعايتهم بالطمأنينة والخدمة المؤاتية والرجاء بحياة أفضل.

أسألكم أيها الأحبة أن نتحد معا في الصلاة من أجل عائلاتنا الصغيرة، ومـن أجـل عائلتنـا الكبيرة، الوطن، لكي تكون جميعها متشابكة بالمحبة والتعاضد والمودة، فيسعد الحاكم بأبنائـه ويتهلّـل الأبناء والبنات بمن يرعاهم.

باركهم وباركهم مع عيالكم، وبارك هذا البلد لتبقوا فيه مثمرين إلى أبد الدهور. آمين.